الأستاذ الدكتور مروان الحلبي وزير التعليم العالي والبحث العلمي، راعي حفل التأبين هذا،

الأستاذ الدكتور محمود السيد رئيس مجمع اللغة العربية،

السادة أعضاءُ المجمع، أسرةُ الفقيد وعائلتُه وأصدقاؤه، أيها الحضور الكريم،

تسبقني العَبَارات أيها الراحل الحبيب، يا صديقي وأخي ومعلمي، وأنا في هذا الموقف المؤلم الحزين لأستذكر بعضاً من علاقة امتدت لعقود كتب حروفَها اللقاءُ اليومي، وصاغ أركانَها التوجهاتُ المشتركة، وعزز استمرارَها تلاقي الرؤى والأفكار. لكن السؤال: هل يجرؤ قلبي على تصديق رحيلك؟ فهذا أمر –لعمري– أقربُ إلى التخريف وأبعدُ من المستحيل. ويردفُه آخر: هل يستوعب عقلي أننا لن نلتقي ثانية في رحاب كلية الآداب وجامعة دمشق، وشوارع دمشق وأماكنها القديمة منها والحديثة، وعلى شاطئ البحر، وفي بيوت الأهل وعند الإخوة والأصدقاء، وفي كل أماكن هذا البلد الجميل الذي تجولنا في ربوعه بسعادة لزمن طويل؟ أجيب بالنفي الأكيد، فالنفس والعقل والوجدان كلها ترفض التصديق.

في وقفتي على هذا المنبر الجليل والعريق، وأنا المكلوم برحيلك –يا معلمي– إلى آخر العمر، أسائل نفسي عن أي من جوانب حياتك الغنية والحافلةِ بالعطاء أتحدث؟ عنك وأنت الصديق والأخ، عنك وأنت الأستاذ والعالم، عنك وأنت العَلَم بين رجالات الفكر والأدب والثقافة في سورية والوطن العربي، وقبل هذا وذاك عنك بوصفك إنساناً عرف الجميع رقيه ومحبته وأخلاقه الحميدة؟ أمام هذا السؤال تتوازعني الحيرةُ في الانتقاء، والضعفُ في الاختيار، فالزادُ الذي تركتَه كريمٌ، والعلمُ الذي حصَّلتَه غزيرٌ، والطبعُ الذي امتلكتَه نبيلٌ، والخُلُق الإنساني الذي حُزْتَه رفيعٌ. لكن ما أقطفه في هذا المقام لا يعدو أن يكون بعضاً قليلاً من ذلك، ليس لأفيكَ حقَّكَ، فهذا محالُ المنال، ولا للتعبير عن منزلتك في نفسي، فهذا ما لا تتسع له الكتب ولا تبلغه الأقلام؛ وإنما لأترجم بعضاً يسيراً من معرفتي بك، وأثرِكَ الطيب في نفوس الناس.

كنتَ تحدِّث صديقَنا الراحل الدكتور مسعود بوبو عن هشاشة الوجود الإنساني والضعف البشري أمام محن الحياة، فتكتشفُ بموته أن الوجود الإنساني واهٍ، وأن ضعفنا البشري أكبرُ بكثير مما كنتَ تتصور. تعلمتَ منه ومن البيئة والحياة الحبَّ بإسراف، والثوريةَ بطهر، والنزاهة بثقة، والاستقامة بإصرار في زمن كان أميلَ إلى الطموحات الفردية والمشروعات الخاصة التي أسهَمَتْ في تدهور حال الوطن، وكان محتاجاً –كما هي القاعدة على الدوام– إلى مشروعٍ عامٍ جامعٍ يضم أبناءَه كلَّهم تحت جناحيه مهما تحاوروا في تصوراتهم، ومهما تباينوا في تنوعاتهم، ومهما اختلفوا في منابتهم، فهو –كما كنتَ ترى– الوطنُ الجامعُ بما يعنيه من هُوية وانتماء.

لم تجرفك موجات التردي، ولم تنحنِ أمام إغراءات السلطة المُبْهِرة، وبقيتَ متمسكاً بالقيم الجامعة ورافضاً التنازلَ عما نذرتَ نفسك له من إيمان بوطن سيزدهر يوماً ما على إيقاع أبنائه جميعاً. إنك لم تزعزع ثقتك بالروح الجماعية التي تبني، ولم تدخر جهداً لاستبعاد الأفكار الفردية والأنانية والخَلاصَات الفردية التي تهدِّم، وهي لا تنمو إلا على حساب الخلاص الجمعي. بقيتَ البطلَ الضد الذي يصمد أمام التيار، فما قيمة الإنسان –يا صديقي– إذا لم يحمل القيم الإنسانية النبيلة، بل ما هي أهميته بالأساس إذا لم يكن صانعاً لها.

إنني –يا دكتور وهب– أعدُّ نفسي بين المحظوظين الذين منحهم الزمن وسامَ صداقتك. استذكر أولَ لقاء فتحَ بابَها عندما طلبتَ التعرف على هذا الطالب الذي حاز درجة عالية عندك. ارتجفتُ أمام هيبتك حين قابلتُك، فرسَّختَ في وجداني وعقلي لقبَ "الأستاذ" الذي كنتُ قد أطلقته عليك، ولا أزال. شعورٌ بالمحبة نشأ بعد ذاك اللقاء. شجعتَني لاحقاً، فكان كلامك زاداً كافياً للجد والاجتهاد. ثم تحولت العلاقة بعد تخرجي في الجامعة إلى صداقة تشاركناها مع المرحوم د. مسعود بوبو. لكنها أخذت مساراً أعمق بعد عودتك من سنوات الإعارة. فأصبحنا لا نفترق، ولقاؤنا اليومي لا ينقطع.

هناك –أيها الأستاذ– دوافع تتأصل في فكر العلماء المدققين. ومعها يصبح لزاماً على المرء أن يوسّع رؤيته باكتساب مزيد من المعارف تؤهله لامتلاك خاصية القراءة النقدية والمحاكمة العقلانية. وهذا ما كان عندك، حين تجاوزتَ عوالم الشعر القديم ورحتَ تنبش في مؤلفات الفكر والتاريخ والفلسفة والفنون في القديم والحديث، في العربي والأجنبي، لتوسِّع بها ملكاتِك المعرفية الواثقة، وذائقتَك الفنية النادرة، فتبدعَ في استنباط أشكالِ بنية النص الشعري وجمالياته، وأوجهِ القول الأدبي وسماتِه، وأنواعِ الفكر الإنساني وتشعباتِه، مما أتاح لك أن تتجاوز حدود التذوق ومعرفة الركائز لتناقشَ الأفكار الثابتة المنقولةَ بقوالبها جيلاً بعد جيل، وتُدخِلَ عليها تعديلات جوهرية فتحت الباب أمام إنتاج قراءات متجددة للشعر العربي القديم. فكتبتَ عن مقدمة القصيدة في الشعر الجاهلي بتذوق رفيع، وأصَّلْتَ قصيدة المدح في الشعر الأموي، بل في عموم القصيدة العربية القديمة، بشخصية العارف بأدق التفاصيل، فكشفتَ عن خفايا وأسرارٍ لا تصدر إلا عن متمكنٍ من ناصية اللغة وعارفٍ بخباياها ومكنوناتها، وعن عاشقٍ للأدب مقتدرٍ على التأويل والتفسير والقراءة المتعددة، وعن متيّم بالشعر يتذوقه ويستمتع به ويحفظه، وقد كان –رحمه الله– حافظاً مميزاً للشعر.

تضيق حدود الشعر القديم أمام طموحات الدارس والناقد وهب رومية، فيتخطاها إلى معارف العلم الحديث، وفنون الرواية والقص الجديد، وتيارات النقد المعاصر. أخذ يقرأ النص الشعري القديم بأدوات النقد الحديث، متجاوزاً تقليدية أقرانه الذين وقفوا أبحاثهم عند حدود الساكن والمستقر. ولم يكن نجاحه فيها أقلَّ مما لاقاه في تخصصه الرئيس. بل أفضت قراءاته المعمقة في الأسلوبية والدراسات الجمالية والتوجهات الحداثية إلى إثراء قراءته للنصوص الشعرية حديثها وقديمها. فنشر أعمالاً وأبحاثاً جسدت هذا التوجه الجسور، مثل كتابيه الصادرين عن عالم المعرفة في الكويت: "شعرنا القديم والنقد الجديد" ١٩٩٦، "الشعر والناقد، من التشكيل إلى الرؤيا" ٢٠٠٦. وكتابه "الشعر والذاكرة: التناص بين الشعر الجاهلي والشعر العربي في القرن العشرين" أبو ظبي، ٢٠٢٠. فالنقد الأدبي –كما كنت تقول– القائم على محاورة النص هو وحده القمين بإعادة إنتاج هُويتنا الثقافية والفكرية، وبناء عقلنا النقدي.

إن روحَك البهية –يا أبا مرار– وخُلُقَك النبيلَ وعلمَك الغزيرَ وتواضعَك الجم خصالٌ كانت فيك أكيد. وهي ما تدفعني إلى اطمئنان مكين بأن مثلك لا يحجب ذكراه الموتُ، ولا يغيّب اسمَه إعلانُ وفاةٍ. فالموت –كما قلتَ لصديقنا العزيز الدكتور علي إبراهيم– "يوهم بانقطاع الحياة، وما هو في حقيقته سوى عودٍ أبدي إلى نقطة البداية. شأنُه شأنُ بحارٍ قديم خبِرَ الإبحار في لُجَّة الوجود". فأنت –يا صديقي– قارٌّ في نفوس أهلك وأصدقائك ومحبيك، مثلما أنت لصيق بعقول تلامذتك وطلابك ومريديك، ومثلما أنت علم بارز بين محبي العربية ودارسيها المستنفَرين دوماً لخدمتها. وبفقدانك، وفقدان تلميذك الراحل د. شفيق البيطار خسر مجمع اللغة العربية علَمين بارزين فيه، والأدبُ القديم قمتين مهمتين من بين دارسيه.

وسأقتطف في الختام قولُك: "ليتني أعرف لغة الطير، ولغة العشب، ولغة المطر، ولغة البحار، ولغة الغابات فأبكيك بها جميعاً! لكنني –كما ترى– لا فصيحٌ فأُبين، ولا عيّيٌ فأصمت.. ذاهلٌ عند حدِّ البكاء بين جمر الصبر وحزن اليمام، والروح نورسٌ جريحٌ ألوَتْ به رِيْحَانِ من صَبَا وشمال".

يقيناً، إنك لن تغيب عن ساحة الحضور، ولو طوى جسدَك الطاهرَ الترابُ.

وشكراً.